بصيص وراء القضبان

بصيص وراء القضبان

لطالما كان السجن مكانًا يخطف منك الحياة رويدًا رويدًا. بين جدرانه الباردة التي لا تفرح بأي شمس، عشت أيامًا طويلة كنت فيها أراهن على الأمل الذي لا يكاد يظهر في الأفق. في الزنازين الضيقة حيث لا شيء سوى الظلال، كنت أتمسك بحلم واحد: أن أعيش حياة حرة، بعيدًا عن سياط الجلادين وأصوات الزنازين.

كنت أرفض الموت، ليس خوفًا منه، بل لأسباب عديدة منها انني لا اريد ان ينتهي بي المطاف رقماً بين اكوام الجثث بمكان مجهول ومقابر جماعية ولأنني لم أكمل بعد تلك الحكاية التي كانت تنتظرني خارج أسوار السجن. كانت صورتهم، صورة أهلي وأصدقائي، تلاحقني في كل لحظة، تذكرني أنني لا أزال على قيد الحياة رغم كل شيء. كانوا يعيشون في ذاكرتي، يزرعون في داخلي أملًا نادرًا، أملًا يجعلني أصر على أنني سأخرج من هنا يومًا ما.

وفي كل مرة كانت السياط تلامس جسدي، كنت أشعر وكأنها تقترب من روحي، لكنها لا تستطيع أن تحطمها. تلك اللحظات، التي كنت فيها بين الموت والحياة، علمتني أن هناك شيئًا أقوى من الألم: الأمل في الغد. ففي تلك الليالي المظلمة، كنت أحلم بأنني سأمشي بحرية على الأرض، بعيدًا عن كل القيود التي كانت تقيدني، بعيدًا عن تلك الأصوات التي كانت تملأ الزنازين بالصمت.

ثم جاء اليوم الذي لم أكن أتوقعه. يومٌ كان فيه الحلم حقيقة، حيث سقطت أسوار السجن في قلبي أولًا، ثم سقطت من حولي. لم يكن الخروج من السجن فقط هو ما كنت أبحث عنه، بل كان الخروج من نفسي، من الماضي الذي كان يلاحقني. كنت أتنفس هواءً جديدًا، حياة جديدة، وكل خطوة كانت تذكرني أن الأمل لم يمت يوماً.

الحلم الذي كان مؤجلًا في الزنازين، أصبح اليوم حقيقة في العالم الخارجي

الفصل الأول

البدايات في تدمر

اسمي عمر تركي مواليد عام 1998 في مدينة تدمر السوريَّة، وهي مدينة تاريخيَّة أثريَّة، وتعدّ من المدن السياحيَّة المشهورة التي يتوافد إليها الزوّار من داخل البلاد وخارجها لمشاهدة آثارها. نشأتُ في أسرة متوسطة الحال. والدي يعمل نجَّاراً للباطون، وهي مهنة تتطلَّب جهداً بدنيّاً كبيراً، لكنّها كانت توفر دخلاً مقبولاً للأسرة. لديَّ خمسة إخوة يكبرونني سنّاً، إضافةً إلى أخت تصغرني بعامَين تقريباً، ثم أخٍ آخر وُلِدَ في مرحلة لاحقة خلال سنوات الثورة. هكذا تشكَّلت عائلتي الكبيرة المكوَّنة من ثمانية أبناء، المنزل كان يعجّ بالحركة والصخب والضحكات.

منذ أن فتحت عيني على الحياة، وأنا أدرك نوعاً من التوازن الاجتماعي لدى والديَّ؛ فهما لم يكونا من الأثرياء، لكنني أيضاً لم أشعر يوماً بالحرمان الشديد، بل كنا نعيش في مستوى اقتصاديّ (متوسط) يُمَكِّننا من توفير الاحتياجات الأساسية والحياة بكرامة. ولأنَّني كنت الأصغر بين الذكور (قبل مجيء أختي الصغيرة بسنتين، ثم أخي الأصغر الذي وُلد أثناء الثورة)، فقد أطلقت العائلة لي اسم "مدلَّل أمِّه"، وأحياناً أخرى "آخر العنقود" قبل ولادة أخي الأخير. وقد كان والديَّ يحبَّونني ويخشون عليَّ أكثر من باقي أخوتي ، خاصةً أنَّ الفرق الزمنيّ بيني وبين أشقائي الخمسة الكبار كبيرٌ نسبياً.

ومع أنَّني حظيَتُ برعايةٍ واهتمامٍ كبيرين من والدتِي ، إلا أنَّ علاقتَي بإخوتي بقيت متوازنة. صحيحٌ أنَّهم كانوا يشعرون بشيءٍ من الغيرة أحياناً لأنني أتلقَّى قدراً زائداً من الاحتواء، لكن في الوقت ذاته كانوا يحبُّونني ويحاولون حمايتي.

من الأشياء التي تسرُّني دائماً أنني عندما أطلب شيئاً صغيراً، كان والدي أو والدتي يبادران لتحقيقه فوراً، على عكس أخوتي. ولعل هذا الأمر عزَّز بداخلي شعوري بالطمأنينة والثقة، وولَّدَ في الوقت نفسه بعض الاحتكاكات الطفيفة مع إخوتي الأكبر سنّاً، خصوصاً حينما شعروا أنّني أحظى بمعاملةٍ خاصَّة.

عشتُ في حيٍّ قريبٍ من سجن تدمر، إذ لم تكن تفصله عنه سوى مئة متر فقط. ورغم أنَّ السجن نفسه كان يمثّل هاجساً معروفاً منذ عقود، فإنَّ الحياة في ذلك الحيّ مرَّت هادئةً نسبياً في طفولتي . كانت بيوت أعمامي متجاورةً لبيت العائلة؛ اثنان من أعمامي يسكنان على مقربةٍ شديدة في نفس الحارة، بينما عمُّي الثالث كان يسكن في بيت الجد الذي يبعد مسافة عشر دقائق سيراً على الأقدام، حيث تجتمع فيه الجدّة وأبناء عمومتي وباقي الأقارب في المناسبات.

في عام 1998، عندما وُلِدتُ ، كان ذلك في ذروة صيف تدمر الحارّ، بحسب ما تذكره والدتي ، كان والدي ينتقل في كلَّ صباحٍ باكرٍ إلى عمله في مواقع البناء في أطراف المدينة أو داخلها، ثم يعود قبل المغرب. كان يكتفي بالأعمال داخل المدينة أو ضواحيها، بينما كان أخوتي الأكبر سناً يعملون أو يدرسون بحسب ظروفهم، أما والدتي ، فقد كرَّست جهدها لتربية أبنائها وتدبير شؤون المنزل.

في طفولتي المبكّرة ، كنت أقضي أوقاتاً مع أبناء عمّي الذين يكبرونني بنحو خمس أو ست سنوات، يعلمونني بعض الألعاب الشعبية، أو يأخذونني معهم للعب كرة القدم في البساتين المجاورة. لكن لطالما شعرتُ بأنَّ إشراف أمي المباشر كان يحول بيني وبين بعض المغامرات التي يخوضها أخوتي الكبار ولكن في المقابل، كنت أشعر بالامتنان لكوني أتلقّى رعايةً إضافيَّة وأحصل على امتيازاتٍ صغيرة.

الذهاب إلى المدرسة لأول مرة

حين أتمَّمتُ السادسة من عمري، التحقتُ بمدرسةٍ تدعى "مدرسة الملك أذينة". هناك تعرّفتُ في عامي الدراسي الأول على مدرّسة اسمها صباح درغام؛ أحبّبتها ووجدت فيها الحب والطيبة.

وبعد مرور العام الدراسي الأول ، نقلتُ مع مجموعةٍ من زملائي إلى دوام بعد الظهر (نهاري) في ذات المدرسة، ظلَّلتُ كذلك حتى الصف الرابع، لأنتقل بعدها إلى مدرسةٍ أخرى اسمها "مدرسة محمد عوض الصالح"، حيث درست فيها الصَّفوف الرابع والخامس والسادس وكنتُ من المتفوقين في المرحلة الابتدائية، وأحرز دائماً الأول على صفي.
أحببتُ كثيراً المدرسة، وأحببتُ أصدقائي في المدرسة وتبادلنا الشعور ذاتهُ.

العلاقة مع الأهل والأقارب

عُشتُ في بيئة اجتماعية تتميَّز بالتواصل العائلي القويّ، فلم يقتصر الأمر على أسرتي وحدها، بل شمل زياراتٍ دوريةٍ لبيت الجدّ حيث سكنّ عمّاتي ، أو لبيت خالي في المنطقة المعروفة باسم "المحطة الثالثة " شرقيَّ تدمر، والتي تبعد نحو 45 كيلومتراً. وكانت تلك الزيارات ذات طابعٍ احتفالي، خصوصاً في العيد أو المناسبات كعيد الأم، وفي الربيع.

وقد زاد من متعة تلك الزيارات الجماعية أنَّ أولاد العمَّة وأولاد العمّ والخال كانوا يتجمّعون بشكلٍ دوريٍّ في بيت الجدّ أو الجدة. وكنت أنتظر لمة العائلة في بيت الجدّ أسبوعياً أو كلّ يومين.

علاقتي مع أخوتي

كانت علاقتي بإخوتي الكبار علاقة حب واحترام من جهةٍ وتشجيع وتقدير من جهةٍ أخرى.

أكبر إخوتي اسمه محمد ، وكان هذا الأخ مقارباً لدور الأب ، إذ أنَّه ترك الدراسة مبكّراً ليعمل مع والدي ويعينه على مصاريف البيت. وقد انعكس ذلك على شخصيَّته ؛ إذ صار بمثابة الأخ الكبير السَّاعي لتشجيع من هم أصغر منه على التفوُّق والدراسة.

أما أخي الثاني علي، فقد أكمل دراسته إلى أن التحق بمعهد بيطري في دير الزور ثم درس معهد تمرض، وأما عامر فهو الأخ الثالث ودرس ثانوية شرعية ثم درس أدب عربي وهناك وضاح الذي توقّف قبل البكالوريا بسبب ظروفٍ تتعلق بالاستدعاء للجيش أو تهرُّبٍ من التجنيد، فضلاً عن المضايقات الأمنيَّة التي ازدادت لاحقًا. وقد كان وضاح هو الأقرب لعمري ، فهو لا يكبرني إلا بسنتين تقريباً ، فقد كنا نخرج معاً دائماً.

وبالنسبة للأخت الصغيرة التي كانت تصغرني ، فقد كانت من أكثر الأشخاص قربًا لي، حيث كنا ننسجم معاً انسجامٌ خاص ، فقد جاءت إلى الحياة حين كنت بعمر السابعة أو الثامنة، فلم يكن بيننا فارقاً زمنيّاً قد لا يتجاوز العامين أو ثلاثة، فكانت المقربة لديّ وكانت الأقرب لقلبي ولها محبة خاصة.

أما الأخ الصغير، فقد وُلد خلال فترة الثورة، لذلك لم يتسنَّ لي رؤيته ، إذ كان هذا الأخ في الثانية من عمره عندما خرجت من سوريا ، والتواصل بيننا أصبح يقتصر على مكالمات الهاتف أو الزيارات القليلة التي تكون كل سنةٍ أو سنتين.

أحلام الشباب

مع انتقالي إلى المرحلة الإعدادية، درست في ثانوية عبد الله بن عباس الشرعيَّة. وكان عدد الطلاب في الصفّ قليل جداً؛ سبعة أو ثمانية فقط، والذي شجعني على الدراسة في المدرسة الشرعية هو وجود رحلات وفاعليات تشجيعية ولباس مجاني وغيرها من الأشياء التشجيعية، وقد تميزتُ في تلك المرحلة ، فكان ترتيبي الأول أو الثاني على صفي وكنت أطمح لدخول فرع الهندسة، وتحديداً لهندسة البترولية أو النفط، لم تأتِ هذه الرغبة من فراغ، فقد كانت تدمر محاطةً بمواقع نفطية وآبار وهذا ما شجعني لدخول هذا الفرع من الهندسة، فقد رأيتُ أنَّ تخصّص هندسة النفط قد يضمن لي وظيفةً براتبٍ عالٍ، غير أنَّ الأوضاع السياسيَّة التي كانت في سوريا منذ 2011، حين انطلقت شرارة الاحتجاجات ثم تصاعدت الأحداث تدريجيًّا، غيَّرت مسار كل شيء.

المنهاج تغيَّر فجأةً إلى اللاتينية في مرحلة الصف العاشر، ما أدّى إلى إرباكٍ شديد بين المعلمين والطلاب، كما شهدت تدمر اشتباكاتٍ متفرقة وتفجيراتٍ في أماكن معيّنة مما جعل بعض المدرسين يتغيبون عن الدوام المدرسي وإعطاء الدروس فصار النجاح بلا امتحانات فنجحتُ بدون عناء وجهد.

وفي نهاية المطاف، ومع اقتراب البكالوريا، تداخلت ظروفٌ أخرى معقدة، منها الوضع المادي المتدهور في الأسرة بسبب الركود الناتج عن أعمال العنف، وارتفاع كلفة الدروس الخصوصية التي باتت ضرورية لفهم المنهاج الجديد اللاتيني. وهذا كلُّه قادني إلى قرارٍ بأن أوازن بين الدراسة والعمل ، كي أسهم ولو قليلًا في تخفيف الأعباء المالية ، وفي الوقت نفسه لا أخسر فرصة إكمال دراستي. ومع أنني حاولت المقاومة فترةً، سرعان ما شعرتُ بفقدانٍ شبه تام للحافز، خاصةً في ظلّ الممارسات الأمنيّة في المدينة واعتقال بعض زملائي بتهمة الاشتراك في المظاهرات وكثرة المخبرين في المدرسة.

قررت أن أبدأ بالعمل في محلٍّ يخصّ أحد أقاربي لصيانة الأجهزة المنزلية، كنت أنهي دوامي في المدرسة ، ثم أتوجَّه فوراً إلى ذلك المحل. برغم التعب الناتج عن الجمع بين الدراسة والعمل، وجدت في العمل متنفساً ، فقد كنت أتعلم صنعةً يحتاجها الناس في ظلّ الظروف الاقتصادية الحرجة ، فضلًا عن أنّني كنت أحظى بأجرٍ ثابتٍ يُعينني على تغطية بعض احتياجاتي الشخصيَّة واحتياجاتٍ إضافيَّة لأسرتي.

كان زميلي في المحل، وهو قريب لي، يعلّمني الأُسس الأولى في فكّ القطع الكهربائية وفحص المحرّكات الصغيرة. وجدتُ لذَّةً في العمل، وازدادت قناعتي بفكرة اكتساب حرفةٍ نافعة، ولكنني بالمقابل كنت أشعر بتناقضٍ أو غصَّةٍ داخلية؛ فأنا لم أنسى بعد حلمي الجامعيّ بأن أصبح مهندساً، ولم أكن أتخيّل في طفولتي أنَّني سأنصرف إلى العمل قبل انتهاء البكالوريا.

في تلك الفترة أيضاً، تعرّفتُ على بعض الشباب الصغار الذين تركوا المدرسة نهائيّاً ليتفرّغوا للعمل.

ظلّلتَ أتساءل في داخلي : هل سألحق بهم؟ هل فقدت شغفي بالدراسة ؟ هل هذا هو المصير؟، ومما زاد هذا التساؤل في داخلي، أنَّ المرشد التربوي في مدرستي رآى تراجعي في دراستي ، فقال لي: "يا عمر، لا تهدر وقتك كلَّه في العمل ، إن كان لديك شغفٌ بالدراسة فتابعها، وإن لم تشعر بأنَّك ستحصد شيئاً من المدرسة ، فتعلُّم حرفةٍ قد يكون أفضل بالنسبة لك على المدى البعيد.

أنا عندي اثنان من أبنائي، أحدهما فشل دراسياً فعلّمته صنعة والآخر تابع دراسته لأنَّه متفوق". تحوَّلت هذه النصيحة إلى علامة استفهام دائمة في ذهني ، إذ بدأتُ أقتنع أنَّه من الممكن أن تصبح الصنعة خياري الرئيسي في ظلّ الاضطرابات الأمنيَّة وعدم استقرار التعليم آنذاك.

الفصل الثاني

تداعيات الثورة

تدمر والثورة

حين بلغت شرارة الاحتجاجات أصداءً في محافظة حمص وأريافها ، امتدَّ ذلك تدريجيّاً إلى تدمر، في البداية، خلال عام 2011، لم تشهد المدينة قصفاً كثيفاً أو حواجزَ صارمة، بل عُرفت بمظاهراتٍ أسبوعيَّة أو شبه يوميَّة تطالب بالتغيير والإصلاح السياسي لقد كان الناس متحمّسين يرون في هذه المظاهرات فرصة للتعبير عن مطالبهم، خصوصاً أنَّهم في مدينة صغيرة نسبياً، لكنها معروفة بعراقة تاريخها. واستفاد النظام من وجود سجن تدمر (له سمعة مخيفة في التاريخ السوري) كرمزٍ للبطش، إلا أنَّ ذلك لم يمنع استمرار المظاهرات.

مع أواخر عام 2012 ومطلع 2013، تغيَّر الوضع، بدأت بعض فصائل المعارضة المسلّحة بالدخول إلى الأطراف، وتحديداً منطقتي "البساتين" الشرقية المحاذية للمدينة، فصارت جبهةَ اشتباكاتٍ بين الجيش النظامي و"الجيش الحر"، ما أدَّى إلى قصفٍ متبادل، وإن كان بشكلٍ متقطّع. هنا بدأ النزوحٍ لأولئك الذين يقطنون الحي الشرقي للمدينة، وازدادت المخاوف الأمنيَّة.

أصبحت في مدينة تدمر مفارقةً غريبة حدثت في العام الأول للثورة، إذ انتعشت أعمال البناء في المدينة بسبب تراخي الرقابة الحكوميَّة عن منح التراخيص، وانهماك السلطات الأمنية في ملاحقة المعارضين، ما أتاح للأهالي بناء طوابق إضافيَّة أو توسعة بيوتهم. وقد استغلَّ والدي ـ كونه نجَّار باطون ـ هذه الفرصة المؤقتة، فحظي بعملٍ وفيرٍ في السنة الأولى، فصارت أحوالهم الاقتصادية أفضل من السابق. لكنه في السنة الثانية بدأ القصف واشتدَّ الخناق، فقلَّت السيولة في أيدي الناس، وهرب كثيرون من المدينة، فتراجعت حركة العمران والبناء.

استفحال الخوف وانتشار المخبرين

في تلك الفترة، بدأ سكان تدمر يتلمسون شيئاً مرعباً : ازدياد عدد المخبرين، أي الأشخاص الذين يقدّمون تقارير أمنيَّة بحقّ جيرانهم أو معارفهم بتهمٍ مختلفة، سواء بدافع الانتقام الشخصي أو تحصيل المال أو إثبات الولاء للنظام. صار الناس في الشوارع يتحاشون الحديثَ الصريــح عن أيِّ موضوعٍ سياسي، أي شخص يقوم بالإخبار عن أحد يقومون باعتقاله بسبب وبدون سبب فقد بات الوضع شديد الخطورة إذا ما أراد شخصٌ الانتقاد أو مجرّد التعبير عن الرفض، قد ينتهي به الحال في السجن. حتى أن المضايقات طالت النساء وأصحاب المحلات التجارية.

في هذه الأجواء غير الصحية، تلقَّت عائلتي صدماتٍ عديدة، فقد اعتُقل أخي الكبير محمد في عام 2012 بتهمة حيازة سلاحٍ والانتساب إلى الجيش الحرّ، وبعد مدّة اعتقاله تلك ، ظلَّ مكان أخي مجهولاً لفترةٍ من الزمن، أمَّا الأخ الثاني (علي) فقد غادر المدينة بسبب تقرير كيدي كتبه أحد أصدقائه به فقد خاف الملاحقة، فغادر المدينة لاحقاً، ورحل أخي الثالث بسبب تهرُّبه من الخدمة العسكريَّة الإلزاميَّة، إذ لا يرغب في القتال ضمن صفوف الجيش النظامي ضدَّ أبناء بلده. وعلى هذا المنوال بدأت الأسرة تفقد تجمعها شيئاً فشيئاً، فيغيب أخي جراء الاعتقال، ويغادر آخر هربًا من ملاحقةٍ محتملة، بينما بقيت أمي تُحاول التأقلم والدعاء لهم في كلِّ وقت.

مداهمة البيت والبحث عن السلاح

من الأحداث المفصلية التي لم تفارق ذاكرتي ، تعرُّض منزلنا لمداهمتين أمنيتين في العام نفسه 2012، المداهمة الأولى حين داهم عناصر الأمن والجيش البيت بحجَّة أنَّهم يبحثون عن سلاحٍ يُخفيه أخي (محمد).

في تلك الفترة، كان أخي غائباً عن المنزل لأسبوعين، لا نعرف تحديداً إن كان معتقلاً أم هارباً في بلدةٍ أخرى ، وقالوا إنَّهم عثروا على سلاحٍ في حوش كراج مجاورٍ للمنزل يستعمله والدي لتخزين الأخشاب.

انقلب البيت رأساً على عقب ؛ كانت لحظةً مرعبة بالنسبة لشاب بالغ من العمر حينذاك 14 عاماً تقريباً ، إلا أنَّ هذا الحادث أشعل فتيل الخوف لدى العائلة، واكتشفوا جدِّيَّة التهديد المحدق بهم.

أما المداهمة الثانية فجاءت في الفترة نفسها من العام 2012، حين اتُّهم أخي بالتحريض على المظاهرات وتمويلها والكتابة على الجدران، إلا أنَّ جميع أفراد العائلة شعروا آنذاك أنَّ المستقبل ينذر بمزيدٍ من الملاحقات والمداهمات.

لقد كانت تلك الفترة الأصعب بالنسبة لي وأصبح الخوف ينتابني ونحن لا نعرف مصير أخي إلى أن أخبرنا أحد أصدقائه أنه مسجون.

اشتباكات متقطعة

خلال مطلع 2013، ازدادت الاشتباكات في محيط الحي الشرقي، حيث منطقة البساتين، من جهةٍ يتمركز فيها "الجيش الحرّ"، ومن الجهة الأخرى تمركز للجيش النظامي. حيث كانت الاشتباكات تشتعل بين الحين والآخر، فيتبعها قصفٌ مدفعيٌ عشوائيٌ على منازل المدنيين هناك. فترك الكثير من سكَّان ذلك الحي بيوتهم، ونزحوا إلى داخل المدينة أو قصدوا مناطق أخرى أكثر أمنًا.

لكن تدمر عموماً شهدت تراجعاً في الأعمال والتجارة ، وصارت تأوي نازحين من حمص ودير الزور، كل هذا جعلها ممتلئةً بعائلاتٍ جديدة.

في ظلّ ذلك، كان التنقل بين أحياء تدمر ممكنًا لمن هم تحت السن القانوني؛ فالحواجز العسكرية على المداخل والمخارج كانت أقلَّ شدَّةً مع الأطفال أو المراهقين، بينما تزداد صرامةً مع الشباب البالغين، تطلب هويّاتهم، ويمكن اقتياد أيٍ منهم إلى الفرع الأمني بدعوى الاشتباه أو العمل مع المعارضين.

لقد كنتُ أقطع تلك الحواجز دون تدقيقٍ، بفضل سنّي الذي كان دون الثامنة عشرة، أمَّا من هم فوق ذلك، فكانوا يخشون المرور في الشوارع كثيراً.

بالتوازي مع تدهور الأوضاع الأمنية، تردَّت القدرة الماديَّة لدى سكان المدينة. حتى والدي لم يعد يجد عملاً مستمراً بعد السنة الأولى للثورة، نظرًا لتوقُّف حركة البناء تقريباً.

وبقيت الأسرة تعيش بمعظمها على القليل المدَّخر أو ما استطاع الوالد أن يوفره من أعمالٍ متفرقة، إذ يشعر أفراده بأنَّ دائرة الخطر تقترب منهم يوماً بعد يوم.

الفصل الثالث

الاعتقال الذي غيَّر مسار حياته

لحظة الاعتقال: حمص 2014/10/19في اليوم الذي اعتقلتُ فيه انتابتني فرحة كبيرة برؤيةِ مدينة حمص من جديد، حيث كنا نذهبُ إليها أنا وعائلتي في فصل الصيف من كل عامٍ للاصطياف لبضعةِ أيام وللتسوّق أيضاً، إلا أن الأوضاع الأمنية والقصف الذي طالها في السنوات السابقة بعد قيام الثورة حال بيننا وبين رؤيتها من جديد. 5

لكن ماهي إلا ساعات حتى تحوّلت هذه الفرحة لرحلة من التعذيب والإعتقال والتغييب في أقبية الأفرع تحت شوارعها.

لقد تم اعتقالي في يوم 19 /10/ 2014، وكنتُ أبلغ من العمر وقتها حوالي 17 عاماً. حين كنت بصحبة عائلتي وبعض خالاتي وأولاد خالاتي في طريقنا إلى منزل أخي ، وعند وصولنا إلى كراج مدينة حمص لحجز بطاقات الباص، قدمنا هوياتنا لحجز مقاعد في الباص الذي كان سينقلنا إلى بيت أخي.

تقدَّم إلينا صاحب مكتب الحجز وطلب مني أن أنتظر جانباً. شعرت بانقباضٍ في صدري، تخلَّصت سريعاً من جوَّالي الأساسيّ وأعطيته لوالدتي"، ظنَّنتُ أنَّ المسألة مجرد تحقيقٍ روتيني؛ إذ قد يسألونني عن سبب السفر أو تاريخه أو غير ذلك. لكنّ المفاجأة كانت حين اصطحبني الموظف الأمني إلى مفرزة تابعة لفرع الأمن السياسي وأمن الدولة؛ هناك سألني عن اسمي وعُمري ولقبي... وعندما قلت لهم: "لا أملك لقباً مثل أبو حمزة أو أبو فاروق"، أجاب المحقق: "ربما تكون أبو عبد الله؟". أحسَّستُ أنّ المحقق كأن يستدرجني لأتلفظ كلمةً معيَّنة تُثبت أنني متهم بتهمةً ما.

بعد لحظاتٍ من الاستجواب، اتصل ذلك العنصر بجهاتٍ داخل الفرع، سألهم عني وعمَّا إذا كنت أحمل المواصفات ذاتها. فأعاد الهاتف إلى مكانه قائلًا: "تفضَّل... أنت مطلوب!".

هكذا بدأت الأمور تسير باتجاهٍ لا يدع مجالًا للشك بأنَّهم سيزجّون بي في التحقيق، حينها طلبوا مني أن أعطيهم أيّ جهاز جوَّال أحمله.

قلت لهم بأنَّ معي هاتفاً دون كاميرا، وأخفيت عنهم الهاتف الآخر الذي سلَّمته إلى والدتي قبل دقائق ، كنت أريد ضم والدتي وتوديعها قبل أن يأخذوني لكنني لم أستطع ، ثم تم أخذي إلى الكولبة وهناك يوجد تخت عسكري تمت كلبشتي ، سألتهم "شو عامل!" قالوا لي: "بعدين بتعرف" وانهالت الأفكار على ذهني وبدأتُ بتجهيز الأجوبة وتوقعتُ أن تكون إلى أين ذاهبون؟ وإلى بيت من؟

نُقلت في سيارة "فان" تابعة للأمن السياسي، وكان في داخلها عددٌ من المعتقلين الآخرين ، عندما أتى العنصر ليأخذني ضربني على وجهي ، قلت له : "أنا ما عامل شي" وبسبب هذه الاجابة بدأ يضربني بقوة ، وسألني أين جوالي؟
أجبتُ : أحمل هاتف بدون كميرا
سألني عن جوالي الأساسي قلت له مع والدتي، سألني أين الوالدة ؟
قلت له: في بلدة الغزاوية

تم احضار والدتي وبدأ المحقق بتفتيش الهاتف وسألني عن رسالة محتواها "إذا دقينالك لا ترد" أجبتُ أن ليس هناك رسالة في هاتفي بهذا الخصوص ، كان المحقق يحاول استدراجي لأي تهمة وسألني إن كنت أملك هاتف آخر قلت له: "لا".

وكانت والدتي تقف خارج الغرفة وكنت أسعى للخروج لأتحدث إليها ورؤيتها، ولكن لم أستطيع قاموا بضربي ووضعوني في السرفيس حاولت التكلم شفهياً مع والدتي من زجاج السيارة وحاولت إخبارها بالتحدث إلى صديقي المقرب وكان اسمه "محمد خير" الذي كان يعلم كل شيء عني وكنا نتواصل مع الثوار معاً، لكن والدتي لم تفهم ما أقول وذهبت بالتفكير بخالي "محمد" الذي كان لديه معارف ، واتصلت الوالدة بخالي الذي اتصل بمعارفه وقال لهم : "ابن أختي موجود في هذا المكان" للتواسط لي، فقد كان هذا الفهم الخاطئ فيه الخير لي.

نُقلتُ إلى فرع الأمن السياسي بحمص، وهناك صادروا كل ما أملك باستثناء ثيابي أخذوا مني حزام البنطال والمفاتيح والهاتف وذهبت لمكتب الأمانات ووضعتهم وقادوني إلى الطابق السفلي (القبو)، حيث تُوجَد الزنزانات. وضعوني في زنزانةٍ فيها سجناءٌ آخرون، بينهم عسكريُّون معتقلون بتهمة الانشقاق أو مخالفة الأوامر، وبعض الموقوفين القدامى الذين جُدِّد اعتقالهم مجدداً. وتم انزالي إلى القبو للزنزانة الأولى.

بدأت الأسئلة تنهال عليّ! ماهي تهمتك؟ قلت: لا أعرف تهمتي ولم أفعل اي" شيء". قلت : "لقد أتوا بي من الكراج دون أية تهمة، حاول السجناء أن يهدِّئوا من روعي، إذ رأوني صغير السنّ ، قالوا: "لا تقلق، ربما تشابه أسماء وتخرج غداً".
شعرت ببصيص أملٍ حين سمعت أنَّها قد تكون فعلًا مسألة تشابه أسماء، أو لعلَّهم لا يجدون تهمةً مباشرةً لي وبسبب الواسطات التي تم دفع المال إليها لنقلي من الفرع وبالفعل في اليوم التالي نادوا على اسمي مع مجموعة أشخاص آخرين، وقالوا لنا : "هاتوا أمتعتكم واستعدوا للخروج".

ابتهجت و ظّننتُ أنَّ الإفراج سيحدث قريبًا. لكن بعد دقائق طويلة، وجدت نفسي مع الآخرين في باصٍ صغيرٍ ينزل بنا عند مدخل فرعٍ ثانٍ يُقال إنَّه "فرع أمن الدولة". أدركتُ هنا أنَّني لن أخرج بهذه السهولة.

فرع أمن الدولة: العنف الأشدّ

ما إن دخلتُ بوابة فرع أمن الدولة بحمص، حتى تلقيتُ مع رفاقي أولى "حفلات الاستقبال" العنيفة.

كان المبنى يشبه سجنٍ عملاقٍ، عندما وصلنا للفرع قالوا لنا: أنزلوا رؤوسكم، وتم انزالنا إلى القسم السفلي للفرع وتعريتنا بشكل كامل، قاموا بصفُّ المعتقلين في رواقٍ طويلٍ مظلم وتم تُغطِّيت أعيننا بقطعة قماشٍ "طماشة"، وتُقيَّد أيدينا للخلف، ورؤوسنا للأسفل ثم يأتي عددٌ من عناصر الفرع المسلّحين بالعصيّ أو الأنابيب المطاطية أو ما يُسمّى "الأخضر الإبراهيمي". ويبدأ الصراخ والركل والضرب، بلا مقدِّمة أو تهمةٍ محددة، فقط لترويـع المعتقلين وجعلهم مستسلمين منذ البداية.

قبل إدخالي إلى غرفة التحقيق، انهال عليَّ عنصران أو ثلاثة بالضرب الشديد حتى سقطت أرضاً، فانقضَّ أحدهم بحذائه وداس على كتفي ، فيما راح آخر يضربني بالكابل على رجليَّ. حاولت أن أصرخ فما زادهم ذلك إلا عنفاً. وحين بدأت بالانهيار، وضعوا "دولاب السيارة" حول رجليَّ لشلّ حركتي، وأجبروني على البقاء منبطحاً. تلقيت ما يقارب الخمسين أو الستين ضربة قبل أن يعيدونني إلى وضعية الوقوف. قال لي أحدهم: "باقٍ خمس ضربات... إذا فتحت فمك وصرخت في واحدةٍ منها، ستتضاعف الضربات خمس مرات".

شعرت حينها أنَّ قلبي كاد ينفجر من الرعب والألم ولا أستطيع أن أتنفس، لكن لم يكتفوا بذلك، بل شعرت بصدمةٍ إضافية حين سمعت أصوات نساءٍ يصرخن في مكانٍ قريبٍ. "رأيتُ في الزوايا شباناً آخرين ممدَّدين. كانت تلك اللحظة بداية قطيعتي النفسية الكاملة مع الأمل. ومع انتهاء جولة الضرب تلك، أخرجوا الدولاب من رجلي وقالوا لي إذهب إلى مكانك، لم أكن أستطيع الوقوف، شعرت بالدوخة وقلت لهم "أنا دايخ". حملوني للحمامات وغسلوا وجهي وأرجعوني ثم أدخلوني للتحقيق وأنا شبه فاقد للوعي".

داخل غرفة التحقيق، واجهني المحقّق بوابلٍ من الأسئلة: "لأيّ فصيل تنتمي؟
أين سلاحك؟
أنت مسلح؟
فأجبت : أنا لا أنتمي لأحد ولستُ مسلحاً، أنا طالبٌ في الثانوية وهذه مدرستي اتصل واسألهم وتأكد، لكنه قام بضربي وقال لي: أنت مسلح، أنت إرهابي، وبدأوا بالضرب والتعذيب، ولم أستطيع المقاومة ، قلت لهم أخي عامر هو الإرهابي ويعمل مع المسلحين وقد توفيَّ منذ فترة.
ثم بدأت بالاعتراف ببعض الأشياء ظنًّا مني أنَّ ذلك سيخلّصني من مزيدٍ من العذاب: قلت لهم إنَّني خرجت مراراً في مظاهرات، وأنّ أخي كلفني أن أجمع تبرعات لهم بحجةِ أنها للنازحين، لاحقاً تبيَّن أنَّهم يتبعون للجيش الحر. لكنَّني لم أحمل السلاح أبداً، وقلتُ لهم أنني لم أطلق رصاصةً في حياتي.
رغم ذلك، استمر التعذيب، كان يصر على أن أذكر أسماء أصدقاء شاركوا معي بالمظاهرات وكنت أعترف عن أشخاص متوفين وأشخاص خارج البلاد، أما حمل السلاح حاولوا كثيراً لكنني لم أعترف رغم كل التعذيب والضرب الذي كان ينهال على جسدي النحيل، سألوني عن أشخاص إذا كنت أعرفهم، ولكنني أنكرت معرفتي لأي أحد منهم، سجلوا التقرير وأرجعوني إلى الزنزانة، كنت أرى وجوههم من تحت الطماشة وأحفظ أشكال وجوههم كلها، أخذني عسكري منهم للقرب من الحمامات وقال لي: "شلاح غراضك". كان يحمل بيده ماكينة حلاقة وحلق كامل شعري.

قال لي: غسل قبل ما ترجع على المهجع، كنت متعباً بالكاد أستطيع سحب نفسي. بقيت 21 يومًا في فرع أمن الدولة، معظمها في زنزانةٍ منفردةٍ بالكاد تتسع لشخصين، لكنَّني مع ستةٍ آخرين، ما اضطرنا للنوم بوضعية "التسييف" (أي على الجنب متراصّين). ننام على بطانية رقيقة رغم قساوة البرد ولم نكن نلبس إلا لباساً خفيفاً لا يقي من البرد".

تعرَّفت على بعض الشباب الآخرين المسجونين، أحدهم اسمه أحمد من الرستن، وآخر من قلعة الحصن، وشاب كان اسمه يحيى من حمص يعمل في صناعة البلور، جمعنا الألم، وتشاركنا القصص.

خلال 21 يوماً قضيتها في فرع أمن الدولة، كانت الأصعب والأقسى والأكثر تعذيباً، أيام كلما حاولت نسيانها تعود من شدة قسوتها.

الانتقال إلى سجن البالوني

بعد مرور 21 يوماً تقريباً جاء جنودٌ بعد الفجر مباشرةً، وبدأوا ينادون أسماء معينة من بينها اسمي ، وضعونا في باصٍ مغلقٍ، وطَلبوا إلينا عدم رفع رؤوسنا، كان قلبي يرتجف ؛ فقد سمعت مسبقاً عن معتقلات العاصمة دمشق ، وأنَّ من يرسلونه إلى هناك غالباً لا يعود.
هناك كان الاستقبال مروعاً. وضعوننا في الكريدور، وكان بانتظارنا ثمانية أو تسعة عناصر يحملون كابلات كهربائية، وأجبِروا كلُّ واحدٍ من القادمين الجدد على الانبطاح، ليُضرب بالعصيّ والكابلات مجدداً ؛ يقال لنا إنَّها "حفلة الاستقبال" كما أنَّهم طالبوننا بالركض بأقدامٍ منهكةٍ من الضرب إلى الطابق الثالث. "من شدة الألم كنت أعض على بنطالي لأخفف قليلاً من ألم رجلي". ثم نقوم بالاصطفاف على طوابير الحلاقة مجدداً.

رأيت في آخر الكريدور امرأةً يتراوح عمرها بين 25-30 عاما، كانت مشبوحة بحيث تبقى يداها للأعلى ويتدلى جسدها ليسهل تعذيبها وتخور قوتها، بدا عليها أنها تعرضت لتعذيبٍ شديدٍ، وضعت عيني بعينها للحظة، شعرت برعشةٍ وارتباكٍ مرير.

بعد انتهاء الإجراءات الأولى، لاحظت أنَّ نوعية التحقيق هناك قد تكون أقلّ قسوةً من فرع أمن الدولة. قضيت نحو أسبوع في مهجعٍ مزدحم ، المهجع الأول، كانت العادة أن من يدخل يستكمل ٤٠ يوم اعتقال ثم يدخل إلى التحقيق، وبنفس الزنزانة رأيت شخصاً كان معتقلًا معي في فرع أمن الدولة.

أجلسونا سوياً وتحدثنا، وفي ثالث ليلة لي في سجن البالونة وأنا في محاولتي للنوم ، سمعت صوت العسكري، ولكنني تحدثت مع نفسي أنني لم أقض الأربعين يوماً، وبدأ العسكري بالصراخ أحمد تركي، إنه اسم والدي هل اصطحبوه إلى هنا!، ثم صرخ أحمد تركي مرة ثانية، ثم سمعت صوتاً ظننت أنه المحقق يقول له: "يا كذا وكذا" اسمه عمر أحمد تركي، فعرفت أنني المطلوب للتحقيق، مدير المهجع كان ذو سمعة جيدة، بدأ يطمئنني عمر ويقول لي: "لا تخف" وقال لي: "اعترف نفس اعترافك بالفرع ما بعذبوك ولا يضربوك". وقفت أنتظر أمام باب غرفة التحقيق، نادى المحقق اسم عمر قمت بالدخول، قال لي: اجلس.
وبدأ بسؤالي: "أنت شو عامل" اعترفت اعترافاً موازياً لما قلت سابقاً (أنني خرجت في مظاهرات باليوم هذا وبالتاريخ هذا، وجمع أموال لبعض المعارضين) وتجنَّبت الاعتراف بأي شيءٍ عن حمل السلاح، سجل المحقق أقوالي ثم نادى على العسكري ليقوم بشبحي على باب الزنزانة ،حيث يقومون بربطي ويديّ للأعلى وجسمي مرتخٍ للأسفل وبدأ العسكري بضربي ،بقيت مشبوحاً حتى تم انزالي وثم تم نقلي لمهجع آخر، وجدت فيه أشخاص كانوا معي أيضاً بالفرع.

في اليوم التالي طلبتُ للتحقيق مرة ثانية، ولكن عند محقق آخر، كان لديه سجين ولم يعترف ويقوم بتعذيبه بدا عليه الغضب الشديد، وبدأ بالقول لي "أخوك ارهابي" وأنّ أخي سجين في صيدنايا وقال لي "أنت ارهابي" وبدأ يتهمني بأنَّني أنحدر من عائلةٍ "إرهابيَّة !!!"، على حدّ وصفه.
وبدأ بإخراج غلّه وحقده وقام بتعذيبي وضربي حتى تخدر كل جسمي، وطلبت منه تغير وضعية جلوسي لأنني لم أعد أشعر برجلي فقام بضربي عليها وزاد الألم أكثر فأكثر واستمر بضربي بدون رحمة أو شفقة، وبدأ يستدرجني بالأسئلة ثم قال لي "قوم ابصم".
بصمت وتم أخدي إلى مهجع الباصمين.

بعد جولات التحقيق، كانوا ينقلون من يُسمّونهم "الباصمين" إلى مهاجع أخرى، بانتظار تحويلهم للقضاء العسكري أو المدني.
والأمل لدى المعتقلين آنذاك كان أن يتم تحويلهم إلى السجن المركزي بحمص أو إلى محكمةٍ مدنيَّة؛ لأنَّ فرص الإفراج أو المقاضاة الأقل قسوة.
أما من يتم تحويله إلى أفرع دمشق، مثل فرع 215 أو فرع فلسطين أو صيدنايا، فذلك يعني غالباً حكم الإعدام أو سنواتٍ طويلة من الاختفاء القسري. فرحت حينها لأن رحلة العذاب أثناء التحقيق انتهت وسيتم تحويلي لمكان آخر.

الطريق إلى القضاء العسكري في حمص... ثم العودة

بعد أسبوع قضيته في مهجع الباصمين، في يوم من الأيام بدأوا بالصراخ بأسماء الجنزير وجمعوا فيه حوالي ستين موقوفاً ونادوا باسمي، قاموا بربطنا في سلسلةٍ حديديةٍ واحدة ("جنزير")، ثم وضعونا في باصٍ عسكري مكتظٍّ ضيِّقٍ لا نكاد نجد موطئ قدم. أثناء الطريق، بالكاد كنا نستطيع التنفس؛ كان هناك رجل مسن كاد يفقد وعيه فسارع الشباب لحمله قرب نافذةٍ صغيرةٍ علَّه يلتقط بعض الهواء. ظننا أنَّنا متجهون إلى سجن صيدنايا قرب دمشق أو إلى فرعٍ أسوأ، لكننا وصلونا إلى المحكمة العسكريَّة بحمص "القضاء العسكري".

وهناك يدخل بضعة أشخاصٍ إلى القاضي يسألهم سريعاً عن التهمة، فيحيل بعضهم إلى سجن حمص المركزي ، وبعضهم إلى دمشق، عندما دخلت رفض القاضي النظر في قضيتي، قائلاً: "هذا ليس من اختصاصنا، أحيلوه إلى محكمة الإرهاب في دمشق". تمت اعادتي مع المجموعة إلى سجن البالوني بحمص، أجرُ اذلال خيبتي ليُضربونا مجددًا بحفلة "الاستقبال" بحجَّة أننا عدنا لنقطة الصفر أو البداية . ثم وضعتُ في مهجعٍ آخر فيه عسكريون فارّون و"احتياط" وبعض الأطفال. المفاجئ في هذا المهجع أنَّه يتمتع بوضعٍ أفضل نسبياً من المهجع السابق، فيه فرشاتٌ أكثر وبطانيات أكثر. كما يُقدَّم الطعام بمستوى أفضل، كانوا يُطعموننا الفروج في يوم الأربعاء، وهو ما يتماشى مع نظام الجيش في أيام ما قبل الثورة.

كان بعض زملائي يسخرون قائلين إنهم أخيرًا "سينعمون" بوجباتٍ أفضل قبل أن يعاودوا نقلهم، استغلَّيتُ تلك الفترة للتواصل مع أحد العسكريين المسجونين هناك؛ أعطيته رقم هاتف أبي، على أمل أن يتصل به يوماً ما ويطمئنه، وعقب أربعة أيامٍ، جاؤوا مجدداً بسلسلةٍ حديديةٍ "الجنزير" وربطوا الجميع. "كنا حوالي 60 شخص ونقلونا في شاحنةٍ مخصصةٍ أصلاً لنقل اللحوم إلى دمشق. وكانت ظروف التنقل أشدّ سوءًا من قبل؛ إذ أنَّهم حشرونا معًا في مساحةٍ لا تليق بالبشر. وبالفعل كاد بعضنا أن يختنق لطول المسافة حتى وصلنا إلى "الشرطة العسكرية بالقابون" في دمشق.

في الشرطة العسكرية بالقابون

هذا المكان كان الأكثر قذارةً من بين ما رأيت ، إذ تملأه الروائح الكريهة والأوساخ والحشرات ، ويعيش فيه موقوفون بكثافةٍ عالية، بلا تهويةٍ. مكثت فيه ليومين، لم أتعرض خلالهما للضرب. وفي اليوم الثالث نادوا أسماء مجموعةٍ وكنت من بينهم، واصطحبونا هذه المرَّة إلى سجن عدرا المدني، كنتُ قد سمعت كثيراً أنَّ عدرا أفضل بمراحل من الأفرع الأمنية، لأنَّه سجنٌ يُعامل فيه الموقوفون على أساس أنَّهم "نزلاء"، وتحت رقابةٍ ما.

الفصل الرابع

سجن عدرا.. وبداية الخروج من الكابوس

الحياة في عدرا

ما إن وصلت إلى سجن عدرا شعرت بأنَّني قد انتقلت إلى عالمٍ آخر. صحيحٌ أنَّه يظلّ مكاناً مغلقاً ، لكنه مختلفٌ تماماً عمَّا مررت به في الأفرع؛ هنا إجراءات تفتيشٍ نظامية، وثيابٌ خاصةٌ بالسجن (مخططة بالأبيض والأسود)

في السجن طلبوا مني أن أخلع ثيابي القديمة كاملة وطلبوا مني رمي البطانيات ولباسي القديم لأنه قد يكون ناقلاً للأمراض والقمل وأعطوني فرصةً للاستحمام بمياهٍ ساخنة ! وهو أمرٌ لم احصل عليه منذ 45 يوماً، كان هناك "صالون حلاقة" بسيطاً لكنَّه يشبه إلى حدّ ما صالونات الحلاقة العادية. شاهدت نفسي في المرآة للمرة الأولى منذ اعتقالي، فحدّقت في وجهي النحيل وعينيّ الغائرتين.

بقيت نحو نصف ساعةٍ أتأمل نفسي في المرآة لأتعرف على ملامحي، شعر رأسٍ شبه محلوقٍ، وجهٍ شاحبٍ ويحمل الكثير من الكدمات، أدركت أنَّ التعذيب وسوء المعاملة ترك أثراً جسدياً واضحاً، بعد ذلك، تم فرزي مع النزلاء الجدد على مهاجعَ مختلفة، وفقًا للتهم الموجهة إلينا أو وفقًا لأعمارنا.
تم تحويلي إلى مهجعٍ يضمّ أحداثاً في مثل سنّي أو أكبر قليلًا، على أيِّ حالٍ كان أكثر أماناً من المعتقلات السابقة. هناك قابلت شباباً من تدمر وريف حمص ومن مناطق متفرقة، تبادلت معهم الأسئلة والقصص:
كيف وصلتم؟"
أين كنتم؟
من أي فرع؟
واكتشفت أنَّ البعض مكث في الأفرع شهوراً أو سنوات أحياناً، وتعرّض لتعذيبٍ أشدّ.

في عدرا الخدماتٍ أفضل نسبياً : الطعام يأتي بشكلٍ أكثر انتظاماً، والعساكر هنا يتعاملون بوصفهم شرطة سجون، لديهم تعليماتٌ مكتوبة، لا يحق لهم ضرب النزلاء بشكلٍ تعسفي. إضافةً إلى وجود وسيلةٍ ـ ولو محدودة ـ للتواصل مع العالم الخارجي عبر الزيارات الأسبوعية للأهل أو السماح بالمكالمات الهاتفية المدفوعة أحياناً. لكنني لم أحصل على زيارة بسبب أنَّ لا أحد من عائلتي يعرف أنني في سجن عدرا أصلاً.

المثول أمام المحكمة.. والأمل بالإفراج

مكثت في عدرا مدةً لا تزيد على أسبوع، ثم تم إذاعة اسمي مع بضعة أشخاص آخرين، وقالوا لنا إنَّ على كلٍّ منا المثول أمام القاضي في القصر العدلي. فرحت كثيراً؛ فهذا يعني وجود احتمالٍ للإفراج بالفعل، اقتادنا عساكر السجن في إحدى الليالي إلى نظارة القصر العدلي، وهناك اختلطتُ بسجناء مدنيين بتهمٍ مختلفة (جرائم جنائيَّة).

في نظارة القصر العدلي كان يُسمح بالاتصال مع الأهل مقابل رشوةٍ بسيطةٍ للشرطي. لكنني لم أكن أحمل أيَّ مال، فأقنعت أحد المساجين المدنيين بمساعدتي؛ شرحت له قصَّتي ، فتفاعل معي الرجل وعرضَ أن يدفع رشوة للشرطي كي يسمح لي بإجراء مكالمة هاتفية سريعة مع عائلتي . وهكذا تمَّ الأمر وتمكنتُ من الحديث مع أبي. كانت والدتي يومها تصلي فأبلغت والدي الأمر بسرعة، ثم سمعت صوت أمي تقول: "مين؟ محمد ولا عمر؟" فلم تُصدِّق للوهلة الاولى.

شعرت باختناق الدموع، أخبرتهم أنَّني بخير، وأنَّني في القصر العدلي، لعلَّي أحصل على إخلاء سبيلٍ قريباً. طلبت منهم أن يرسلوا لي ثياباً دافئة، فقد كان الجو بارداً جداً ، وطلبت منهم تعين محامي.

في اليوم التالي، جاء المحامي الذي استعانت به عائلتي ، أخبرني " اليوم القاضي في عطلة سوف ننتظر ليوم الغد" ، وقال لي إنه لم يستطيع إدخال الملابس الشتوية وأعطاني بعض النقود لأشتري الطعام، وكان يسمح للسجناء بشراء الصندويش من الخارج ويقوم بعملية الشراء عسكري أو سجين موثوق به.
في اليوم التالي مثلتُ أمام القاضي فَسألني:
القاضي: "أنت متَّهمٌ بالإرهاب، وحسب الملف اعترفت بحيازة السلاح ومساعدة الثوار".
أنا: "تعذَّبت، واضطررت للقول أنني فعلت هذا وذاك. لا يوجد دليل مادّي، والاعتراف أخذوه بالقوّة".
القاضي: "هل لديك إخوة مع الجيش الحرّ؟"
أنا: "ليس لديّ إخوة أصلًا. أنا وحيد." (أنكرت وجود إخوة لي حتى لا أورطهم)
القاضي: "حسناً ، إذن إنكارك يسجّل.. وسنرى التفيش الأمنيّ، إن لم نجد عليك أيَّ شيءٍ فسيفرج عنك".
وبعد التحقيق الرسمي، قالوا لي ولزملائي: "سنرفع البصمات، وإن لم تكن هناك مذكراتٌ أخرى بحقّكم، ستحصلون على إخلاء سبيل." وهكذا نُقلتُ إلى النظارة مجدداً في انتظار نتيجة التفيش.

في المساء نادوا اسمي مع خمسةٍ آخرين، وفي الصباح تكرّر النداء وقالوا لنا: "هيا.. أنتم سوف تخرجون " لم أصدق ذلك؛ ظنَّنتها خدعةً سينقلونني إلى فرعٍ جديد. لكنَّهم سلَّموني هويتي، وفتحوا لي باب القصر العدلي للخروج إلى الحرية.

العودة إلى الحرية.. ولقاء الأهل

خرجت من بوابة القصر العدلي متعجباً، أشعر برهبة الشوارع وضوء الشمس. سرتُ نحو الحميدية (وهي سوق شهير في دمشق) وهناك حاولت شراء بعض الملابس. كان معي القليل من النقود التي تركها المحامي أو تبرَّع لي بها بعض المساجين، واشتريت بثمنها بنطالاً وحذاءً وأكلت قطعة حلويات.

حين رأيتُ كثافة البشر في الشوارع والمحلات، شعرت كأنني أزور الدنيا لأوَّل مرة ، أدركت كيف تستمرّ الحياة، بينما هناك الآلاف في الأقبية المظلمة ، لم يسمع بهم أحد.

ظلَّلت في دمشق يوماً إضافياً في بيت شخص من أقاربي وتكلمت مع عائلتي في الهاتف واتفقنا على طريقة آمنة لعودتي إلى تدمر دون أن يتم توقيفي في الحواجز. صعدت في باصٍ صغيرٍ مساءً، واتفق السائق مع شخصٍ يعرفه أن يخفي هويَّتي إن طلب الحاجز ذلك. وبالفعل عند حاجز القطيفة أو غيره ، طلب أحد العناصر هويَّات الركاب ، لكنَّ السائق تلاعب بالأمر وأشار للمساعد أن يتغاضى عن هويتي، وبذلك نجوتُ من التدقيقٍ الأمني، وأنا في طريقي إلى مدينتي كنت أفكر بلقائي مع العائلة الذي طالما حلمت به وأنا داخل السجن.

عندما وصلت إلى تدمر، نزلت من الباص واحتضنت أخي الذي أتى بسيارة أجرة تكسي لأخذي، لأجد عائلتي تنتظرني أمام الباب و والدتي نظراتها ممتلئةٌ بالدموع والفرح، وأختي الصغيرة تأتي راكضةً. أخرجت لها قطعة "بسكويت ويفر" اشتريتها من استراحة الباص، ثم أخذتني والدتي في حضنها وهي تبكي بكاءً شديداً والعمات والجارات توالوا في سؤالي عن المعتقلين الذين قد التقيت بهم أثناء اعتقالي؛ "هل رأيت فلانًا؟ هل رأيت ابني؟" فكنت أطمئنهم بما أمكن. قضيتُ الليلة في البيت أتناول الطعام مع العائلة وأستمع إلى حكاياهم عمَّا عانوه أثناء غيابي، والدموع تملأ عيني والدتي.

الفصل الخامس

قرار الفرار من تدمر

الانطباع بعد الخروج

لم تمضِ على عودتي سوى شهرٍ تقريباً حتى ازدادت المخاوف. رأيتُ نظرات والده القلقة : "ربما سيلاحقونك ثانيةً... لست آمناً هنا." شعرت أيضاً بالقلق، فقد ذكر لي بعض الأصدقاء أنَّ اسمي قد يعاد إدراجه في قوائم المطلوبين عاجلًا أو آجلًا، خاصةً بعد أن عرفوا أنني أنحدر من أسرةٍ انضم بعض أبنائها إلى صفوف المعارضة، وأنني "اعترفت" في التحقيق أنني شاركت في مظاهرات. كما كان جسدي لا يزال يعاني من آثار التعذيب: أوجاعٌ في الخاصرة والبطن، وطفحٌ جلدي. كانت والدتي تحضر لي خلطةً من الأعشاب لعلاجي، لكنَّني كنت أحتاج إلى عنايةٍ طبيةٍ.

وفي مطلع عام 2015، وصلت معلومةٌ مؤكَّدة للوالد أنَّ فرع الأمن السياسي بصدد إصدار مذكرة اعتقالٍ ثانيةٍ بحقّي . فقرروا على عَجل: "لا يمكنك البقاء هنا... يجب أن تهرب." لم يكن هناك ترتيبٌ سابق أو تحضيرٌ ماليٌّ كافٍ. فجأةً جاء أخي وقال لي : "ضبّ أغراضك على السريـع، جاءت سيارة " اطلع!" ولم أتمكن حتى من وداع والدتي بشكلٍ كاملٍ هذه المرَّة. حملت حقيبةً فيها بعض الملابس، وودَّعت والدي بشكلٍ خاطف، ثم مضيت في سيارةٍ نحو الرقة.

في الطريق إلى الرقة، اجتزنا عدة حواجز للنظام، وقد ساعدني الشخص الذي استأجروا سيارته بتقديم رشاوي مختلفة. أمضينا نحو ثلاث ساعاتٍ حتى وصلنا إلى مدينة الرقة ، حيث كان يسكن عمي وبعض أبناء عمومتي منذ سنوات. وجدت أنَّها باتت تحت سيطرة "داعش" عام 2015. رأيت رايات داعش السوداء ترفرف في شوارع المدينة، مكثت أسبوعاً هناك مع عمي، ورأيت القصف الجويّ يستهدف أطراف الرقة بين حينٍ وآخر.

كما لاحظت تواجداً مكثفاً لعناصر داعش في الطرق والساحات. تفحّصوا شعري، ظناً منهم أنني قد أكون "عسكري هارب" بسبب قصة شعري القصيرة، لكنَّني أبرز هويتي المدنية فيتجاوزن عني.
في هذا الأسبوع، ساعدني ابن عمّي على ترتيب أمر سفري إلى إدلب؛ إذ كان في إدلب أحد إخوتي ورفاقي . كنت متخوّفاً من رحلتي الثانية إلى ادلب استقلَّينا شاحنة صهريـج مازوت تعود لابن عمّي، وقادها أحد السائقين، وفي الداخل جلست مع بضعة شبان. كان الجو شتوي بارد ، كانت تتساقط الثلوج في بعض الأماكن ؛ إذ ما إن خرجت من مناطق سيطرة النظام حتى أمرّ مجدداً بحواجز لداعش، يُفتَّش فيها أيّ شابٍّ بدقَّة، ثم اضطرنا للدخول في طرقٍ زراعيةٍ طويلةٍ. استغرقت الرحلة عشر ساعاتٍ بدلاً من ثلاث أو أربع في الأوضاع العادية، ونحن في طريقنا توقَّفنا عدَّة مرَّات هرباً من التفتيش ولأنَّ الثلوج تعيق الحركة. وأخيراً وصلت إلى سرمدا في ريف ادلب.

إدلب.. وحياة جديدة

حين وطأت قدميَّ أرض إدلب، توجهّت مباشرةً إلى المكان الذي يقيم فيه أخي اقترح عليّ الانضمام إلى فصيل الجيش الحر، نظراً لعدم توفّر فرص عملٍ كثيرةٍ في إدلب، وقد استجبت لذلك، لأنني بقيت بلا عملٍ ولا حماية ، فقد أتعرّض لخطر الخطف أو الاعتقال مجدداً من أيّة جهة. وهكذا قضيت سنتين في فصيلٍ تابعٍ للجيش الحر، في مناطق "شمال إدلب"، أشارك في الحراسة أو الحواجز أو بعض الأعمال العسكرية المحدودة، دون انخراطٍ مباشرٍ في معارك كبرى.

بعد سبعة أشهرٍ تقريباً من وجودي في إدلب، اقتحمت داعش مدينة تدمر ويومها، نزحت عائلتي أخيراً من تدمر إلى إدلب ، إذ صار البقاء مستحيلًا تحت سيطرة التنظيم، اجتمعت مع والديَّ وإخوتي مجدداً ، في لمَّةٍ عائليةٍ بدت كأنَّها نادرة الحدوث. سكنا معاً في منزلٍ مستأجرٍ، تابعونا الحياة وسط أجواء الحرب والمناوشات وتم جمع شمل العائلة مجدداً.

الخروج إلى تركيا (2017)

استمرت الأحوال في إدلب بالتأزُّم تدريجياً مع تغيّر سيطرة الفصائل وازدياد القصف. وفي مطلع 2017، قررت أنني سأغادر إلى تركيا ، حاولت العبور من إحدى نقاط التهريب الحدودية، لكن السلطات التركية ألقت القبض علينا في المحاولة الأولى، ووضعونا في خيمةٍ ليلةً كاملة، ثم أعادونا إلى الداخل السوري. وبعد يومين كرّرت المحاولة مع مجموعة أخرى، ونجحت في الدخول. كانت محطتي الأولى بلدة الريحانية على الحدود. بقيت يوماً أو يومين عند أصدقائي القدامى، لكنني لم أشعر بالأمان لأسباب عديدةٍ، كما أنَّ صوت الرصاص أحياناً يصل إلى البلدة، فأرتبك وأظنُّ أنّه قصفٌ أو اشتباك.

ومن هناك، استقلّيت سيارةً إلى غازي عنتاب حيث يسكن بعض أخوالي. في تلك الفترة، كانت عنتاب مزدحمةً بالسوريين، ومراكز الإيواء والجهات الحكومية التركية تشّدد في شروط التسجيل للحماية، ومع ذلك.. حاولت أن أجد طريقة ؛ عملت بدايةً في صيانة البرادات والغسالات، وتم استغلالي مراراً بسبب جهلي باللغة التركية واحتياجي لأي أجرٍ. ثم تلقّيت دعواتٍ من أقاربي في إسطنبول، فسافرت إليها. وجدت أجراً أفضل، وعملاً في ورش خياطة أو مطابع أحياناً وأقمت في سكنٍ جماعي مع شبابٍ آخرين. لكنني لم أنسجم كثيراً مع حياتها الصاخبة.

هكذا تنقّلت بين مدنٍ تركية عدة: عنتاب، إسطنبول، قيصري... وفي النهاية استقرّيت في غازي عنتاب وقمت بفتح محلٍّ لبيع وصيانة الأدوات المنزلية المستعملة. نجحت مع الوقت في بناء زبائن، واكتساب سُمعةً طيبة لدى السوريين والأتراك على حدٍّ سواء.

تزوَّجتُ، وأنجبت ابنتين، الكبيرة قاربت الخامسة، والصغيرة نحو سنتين ونصف.

الفصل السادس

تبعات الاعتقال النفسيَّة ورحلة العلاج

الكوابيس والأرق

خلال السنوات اللاحقة، عانيت من تبعات نفسيةٍ عميقة جرّاء التعذيب والقهر الذي قضيتهُ في فروع الأمن. كانت أكثر مشكلة تلاحقني هي الكوابيس التي تنقلي لفضاءٍ مظلم؛ أرى نفسي في زنزانةٍ منفردةٍ تحت سياط الجلادين، أسمع صرخات نساءٍ أو أطفالٍ ،أستيقظ فزعاً و العرق يتصبب مني وحين أجلس في المساء بعد يومٍ طويلٍ من العمل، أجد نفسي أحياناً أسرح في ذاكرتي لأستعيد تفصيلياً تلك الليالي الرطبة الخانقة في فرع أمن الدولة" رائحة العفونة، بطانياتٌ قذرةٌ ممزقة، شبَّاكٌ صغيرٌ عالٍ لا يصل إليه الهواء إلَّا نادراً ورفاق زنزانتي يحاولون السخرية بلطف لتخفيف التوتر. كان صديقي أحمد من الرستن يقول لي: "نحن في ضيافة بشار الأسد... معزومين هون ببلاش! فنضحك ضحكةً مريرة. وأتذكر عندما اضطررنا للنوم جالسين بسبب ضيق المكان.

وفي إحدى الليالي، تعرَّض شابٌ في المنفردة المجاورة لجلطةٍ أو أزمةٍ قلبية، فبدأ يصرخ من الألم، فلم يُجبه عناصر السجن إلَّا بصراخٍ: "اخرس!" في سجون كهذه، يُترك المرء للمصير المجهول. ولا أعرف إن كان ذاك الشاب قد نجا أم مات. أتذكر بقوةٍ رجلاً مسناً في فرع البالوني كان يئنُّ باستمرار بعد تلقيه ضرباتٍ عنيفةٍ على ركبتيه، ولم أرى أحداً يأبه لحاله.

"أتساءل: "كيف يُعقل أن يبقى هؤلاء بلا قصاص؟

لكنَّني في الوقت نفسه لا أدري متى وكيف تتحقق العدالة في سوريا و كنت أستعيد صورة المحقّق ذي اللحية الحمراء الذي بدا غاضباً دائماً ، ويجلد أرجل المعتقلين بالكابل الأخضر، يلهج بألفاظٍ بذيئةٍ وشتائم مخيفة.

كل هذه اللقطات تنبثق في ذهني عندما يهدأ البيت ليلًا، فأُدرك أنَّ آثار السجن لا تفارقني مهما ابتعدتُ زمانيّاً ومكانيّاً.

في بعض الليالي أتقلب حتى الثالثة فجراً دون القدرة على النوم. وقد ينعكس ذلك على حالتي المزاجية ؛ فأصبحت أحياناً أكثر انطوائية وأقلّ رغبةً في الاندماج مع الناس.

وحينما انتقلت أخيراً إلى غازي عنتاب وتزوجت ، وجدت أنَّه لابد من التخلّص من هذه الأعراض قدر الإمكان، كي أحظى بحياةٍ صحيَّةٍ مع زوجتي وبناتي.
لذا لجأت إلى بعض المراكز التي توفّر دعماً نفسياً للسوريين الناجين من الاعتقال ومنها مركز العائلة في رابطة معتقلي ومفقودي سجن صيدنايا تلقَّيت جلساتٍ إرشاديَّة وفيزيائية ، استعدت فيها ذكرياتي المؤلمة، وتعلّمت أساليب التهدئة الذاتيَّة والاسترخاء قبل النوم.

تلك الجلسات ساعدتني تدريجياً في خفض حدَّة الكوابيس، وإن لم تختفِ تماماً.

الآلام الجسدية والعلاج الفيزيائي

إلى جانب الاضطرابات النفسية، شكّل الجانب الجسدي معضلةً أخرى. لقد سبق أن تعرَّضت لإصاباتٍ في ظهري نتيجة الضرب المبرح، ولا سيّما منطقة الخاصرة و من التهاباتٍ جلديّةٍ أو طفحٍ متكرّرٍ منذ أن كنتُ في فرع أمن الدولة. فلم تتيح لي ظروف القصف والتنقل المستمر فرصة التداوي السليم.

عندما استقرّيت أخيراً في مدينة عنتاب ، طُلب مني إجراء فحوصٍ طبيةٍ والحصول على وصفاتٍ للعلاج الفيزيائي وبالفعل، وجدت جلساتٍ تقدم مجاناً أو بتكاليف رمزية. وقد استفادت كثيراً عندما تعلمت تمارين الاسترخاء وإطالة عضلات الظهر، وأصبحت أواظب عليها، فانخفضت آلامي، وفي الوقت ذاته، تحسَّن مزاجي مع تحسّن حالتي البدنية، كانت أولى خطوات الشفاء أنني أصبحت لديّ القدرة على حمل ابنتي الكبرى ومداعبتها دون ألمٍ مزمن في الظهر.

الفصل السابع

نظرة نحو المستقبل

أكثر ما يُقلقني اليوم هو تشرذم عائلتي؛ فوالديّ وإخوتي ما زالوا متفرّقين، قسمٌ منهم في إدلب، وقسمٌ آخر لجأ إلى شمال حلب (عفرين أو غيرها)، وبعض أقاربي خرج نحو أوروبا و أنا أعيش في تركيا مع زوجتي وبناتي ، ولقد خسرنا بساطة الحياة التي كانت في تدمر قبل الثورة، أصبحنا الآن مجموعاتٍ موزَّعة، نادراً ما نتواصل إلَّا عبر محادثاتٍ هاتفية أو مكالماتٍ بالفيديو.

لا تفارق ذاكرتي أزقة مدينتي تدمر و"بساتينها"، واجتماعات العائلة كم أشتاق لتلك المدينة ولأهلها.

أمل الرجوع للوطن

أنا شخص يأمل في العودة للوطن والبناء، رغم الظروف الصعبة التي نعيشها بسبب الحرب.

أتمنى أن يأتي اليوم الذي تهدأ فيه الأوضاع وتنتهي الصراعات "عندما تنتهي هذه الحرب فعلًا، سأعود لأرى تدمر حتى لو كانت خراباً، سأحاول بناء حياتي من جديد".
هذا هو حلمي ، أن أعود إلى مدينتي وأعيد بناء ما دمرته الحرب.

كما أخطط لفتح ورشة لصيانة الأدوات المنزلية في تدمر، لأنني أؤمن بأن هذا سيساهم في إعادة توحيد الأسرة. أريد أن يكون والدي بجانبي وإخوتي أيضاً ، وأن أعرّف بناتي على أقاربهم الذين لم يعرفوهم من قبل.

من المؤلم أن يكبرن بناتي دون أن يعرفن جدّهن وجدّتهن وأعمامهن وخالاتهن، وأرغب في أن نعيش حياة عائلية متماسكة من جديد.

محاولة الاستقرار في تركيا

في الوقت الراهن، لن أعود إلى سورية ولكن أتمنى العودة قريباً، سأعمل على تحسين وضعي كمقيمٍ في تركيا، وتأمين تعليمٍ أفضل بناتي ضمن المدارس التركية مع الحرص في المنزل على تعليمهم اللغة العربية.
افتتحت محلّي الخاص مع شريكٍ من أقاربي، وسجَّلته رسمياً في إحدى بلديات غازي عنتاب.
بات المحل يدرّ لي دخلًا مستقراً إلى حدٍّ معقول، وإن لم يحقق ثراءً كبيراً، لكنَّني بعد كل معاناتي، أرى: "أهمّ شيءٍ هو الصحة وراحة البال، وقد تكون الكرامة "،كذلك؛ فأنا على الأقل الآن أستيقظ في الصباح دون أن أخشى دقّ بابٍ مفاجئ سأقوم بزيارةٍ قصيرةٍ إلى الشمال السوري ، حيث تقيم عائلتي، بمجرّد أن تتحسن ظروف المعابر و تسمح بالزيارة و العودة مجددًا إلى تركيا ؛ ولكنَّني أتوق شوقاً لرؤية والدتي وعناقها، وللاطمئنان على أخي الأصغر، الذي كبر وهو الآن تجاوز الثامنة.

التفكير بالمفقودين والمنسيين

كثيراً ما أسأل نفسي : "ماذا عن مَن بقوا هناك في المعتقلات؟" فقد تركت هناك في زنزانتي أصدقاء كُثر. فمَن منهم خرج ومَن منهم قضى تحت التعذيب؟ ما مصير هؤلاء المعتقلين الذين تعتقلهم الفروع الأمنية بلا سبب ، وبعضهم لا ذنب له سوى حضور مظاهرةٍ سلميةٍ أو انتقاد النظام علناً أو حتى سقوطه في خلافٍ شخصيٍّ يؤدي لكتابة تقريرٍ فيه! أشعر بالعجز، لكنَّني سأذكر أسماءهم في أيِّ مجلسٍ إنساني أو في بعض منظمات التوثيق.
على الأقل سنوثّق معاناتهم في مكانٍ ما... لئلا يبقى العالم صامتاً.

حيث كنت في حوارٍ مع ناشطين، طلبوا مني أن أشارك بشهادتي حول ما عشته في المعتقلات، للضغط من أجل محاسبة مرتكبي الجرائم. ترددت في البداية خوفاً من الملاحقة ، لكن مع الزمن بدأت أقتنع لعلَّها الخطوة الصحيحة نحو إنصاف المعتقلين.

امتداد الأمل والسعي لتحقيق العدالة

خلاصة ما مررتُ به هو حكاية آلافٍ من الشباب السوريين الذين رسموا أحلامهم في طفولةٍ هادئةٍ، ثم انقلبت حياتهم مع اندلاع الثورة وتفاقم العنف الأمني. عاشوا بين المظاهرات والقصف وعانوا التنقُّل بين الأفرع الأمنية والسجون العسكرية، وتعرضوا للتعذيب والإذلال. وكلٌّ منهم وجد سبيله في الهروب أو اللجوء، تاركين وراءهم مدنهم المحبوبة وذكريات طفولتهم الهادئة، آملين أن يتغيّر الحال ويعودوا لبناء مستقبلٍ أضاعته الحرب.
كنت أحلم بدراسة هندسة البترول في محيط تدمر؛ انتهى بي المطاف كهربائياً لإصلاح الأجهزة المنزلية في تركيا، لكنني لا أزال مؤمناً بأنّني سأعود يوماً، وأؤمن أنَّني طالما بقيت حياً، ستظلّ أبواب الأمل مشرعة.

عجلة الزمن لن تتوقف عند منطق القهر، هناك مئات الآلاف ممن سيعيدون بناء ما تهدَّم، ولعلَّ الأهم من البناء العمراني هو البناء الاجتماعي والنفسي للناس، إذ تعرَّضوا لصدماتٍ لا تُنسى.

في ختام القصة ، نجد أن السعي نحو تحقيق العدالة وإنصاف المعتقلين هو رحلة لا تنتهي. رغم كل التحديات والمعاناة، يبقى الأمل هو الشعلة التي تنير الطريق، وإنّ التضامن والتكاتف بين الناس يمكن أن يحقق المعجزات، ويعيد الحق إلى نصابه. ومع كل خطوة نحو الحرية، نتذكر أن العدالة ليست مجرد هدف، بل هي حق أساسي لكل إنسان. لنستمر في الكفاح من أجل العدالة، ولنجعل أصوات المعتقلين تُسمع، حتى يتحقق حلمهم في الحرية والكرامة.

هكذا تنتهي فصولٌ من حكايةٍ طويلة، دون أن تنتهي الحكاية فعلياً. ما عانى منه عمر هو مثالٌ حيٌّ لما يتعرَّض له شبانٌ كثر في سوريا، قد تُمحى بعض تفاصيل الوجع مع الزمن، وقد يبهت تأثيره، لكن لن يُنسى تماماً.

وما دام هناك أملٌ بعدالةٍ وإنصافٍ، سيظلُّ سعي هؤلاء الناجين قائماً حتى يُحاسَب كلُّ من تجرّأ على إذلالهم بلا وجه حقّ.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison